# علامات الترقيم ودلالاتها في نثر نزار قباني

## -السيرة الذاتية أنموذجا-

أ/ فيروز رشام

المركز الجامعي -البويرة-

المتصفح لكتب نزار قباني النثرية" خاصة لسيرتيه الذاتيتين « قصتي مع الشعر» و«من أوراقي المجهولة...» ينتبه سريعا لكثرة علامات الترقيم فيها وتنوعها أيضا، حيث يركز استعماله وبشكل مهيمن على علامة لها دلالات خاصة هي النقاط المتتابعة، والتي يجعلها أحيانا نقطتين فقط (..)، وأحيانا أخرى ثلاث نقاط (...). وتأتي بعدها في المرتبة الثانية النقطة والفاصلة، ثم أخيرا علامتا الاستفهام والتعجب.

وظيفة علامات الترقيم هي الإشارة إلى « الحدود بين أطراف جملة مركبة، أو بين جمل مؤلفة لنص ما. وتدل أيضا على علاقات العطف أو الجر بين الجمل المختلفة. هذا من الناحية البنائية التركيبية. أما من الناحية الصوتية فإن علامات الترقيم تمثل تقليدًا اصطلاحيًا للتدليل على الخط البياني للصوت»[1].

إنّ علامات الترقيم في العربية مستحدثة ومنقولة عن الغرب، وهذا لا يعني أن «متن العربية يفتقر في مبناه إلى مثل هذه العلاقات البنائية - المنطقية التي تمثلها ظاهريًا علامات الترقيم»[2]، والتي تتمثل في العلامات العشر الآتية:

الفاصلة (،) – الفاصلة المنقوطة (؛) – الوقفة أو النقطة (.) – الاستفهام (؟) – التأثر (!) – النقطتين الفوقيتين (:) – النقاط الثلاث المتجاورة علامة على الحذف (...) – الشرطة أو الوصلة (-) – علامة التنصيص (« ») – القوسين ( ( ) )[3].

تعد النقطتان المتتابعتان أهم علامة ترقيم استعملها نزار قباني في كتاباته النثرية. وكما هو واضح فإنّ مجامع اللغة العربية لم تصنّف هذه العلامة ضمن علامات الترقيم، ولم تحدّد لها مهمة معينة أو دلالة خاصة.

ينوّع نزار قباني في الجملة الواحدة وفي الفقرة الواحدة، بين هذه العلامات الثلاث: الفاصلة، النقطة، والنقاط المتتابعة، وذلك بشكل يجعلها تخلق إيقاعًا مميزًا يفرض على القارئ نمطًا خاصًا من القراءة:

« كانت الأشياء لا عمر لها بين يدي. كانت كلّها
هشّة وسريعة العطب..
الدمى لا تقاوم. قطارات الطفولة لا تقاوم.
كراسات رسوم الأطفال، الأقلام، الكتب الملونة،
الدفاتر المدرسية، لا تقاوم.. حتى كأن حجرة طفولتي
هي مقبرة الأشياء المستهلكة.. »[4].

والملاحظة الأخرى التي لا بدّ من الإشارة إليها، هي أنّه قلّما ينهي الجمل بنقطة واحدة، وهذه ظاهرة عامة وشائعة في كتاباته، حيث تنتهي جلّ جمله بنقطتين متتابعتين، كما يعوّض بهما الفاصلة في أحيان كثيرة، وهذا ما نجده في قوله:

« الرسم! ربما كان هو قدري..
وغرقت سنتين أو ثلاثا في قوارير اللون والصباغات
والأقمشة. رسمت بالماء، وبالفحم، وبالزيت..
رسمت أزهارًا.. وثمارًا.. وبحارًا.. ومراكب..
وغابات.. وشواطئ.. ونساءً عاريات..
لم أكن رسامًا رديئًا.. ولكنني لم أكن أيضًا
رسامًا جيدًا.. »[5].

حين نحاول فهم ما يمكن أن تضفيه هذه الإشارة داخل النص، تواجهنا مشكلة كبيرة. فإذا كان النحويون واللغويون قد حددوا دور النقطة في إنهاء الجملة دلالة وتركيبًا، والفاصلة في تنظيم الأجزاء داخل الجملة الواحدة، فإنّهم لم يحدّدوا للنقطتين المتتابعتين مهمة خاصة. ثمّ إنّ هذه الإشارة لم تكن تشكل في كتابات القدامى ظاهرة شائعة؛ كانت ترد نادرًا دون أن تلفت انتباه أحد. لكن في الأدب المعاصر، شعرًا ونثرًا، أخذت هذه العلامة مدلولاً ووضعًا خاصًا داخل النصوص.

يبيّن التأمل في هذه الإشارة أنها في الواقع تقول ما لا يقوله الكاتب. إنّها تحيلنا إلى كل الدلالات والمعاني التي يمكن أن تجرها الجملة، فاتحة بذلك آفاقًا للتأويل والتصوّر والإضافة عند القارئ.

« كان التراث في مفهوم مدينتنا، ضريحًا من الرخام
لا يُسمح بتجميله أو ترميمه، وسكة حديدية تمتد
باتجاه واحد من محطة الجاهلية.. حتى محطة القرن
العشرين.
المحطات هي هي.. والوقفات هي هي.. وأسماء
المسافرين هي هي.. وحقائب المسافرين هي هي..
خمسمئة سنة.. والركاب محبوسون في مقاصيرهم
الخشبية غير المريحة.. لا يملكون صعودًا ولا نزولاً..
حتى أصبحوا جزءًا من القطار.. وجزءًا من رحلته
المضجرة.. »[6].

إنّ النقطتين المتتابعتين في هذه الجمل جزء من الصورة والدلالة معًا، لأنهما تفتحان النص على فضاءات واسعة وتأويلات عميقة. فالنقطتان بعد "خمسمئة سنة" توحي إلى أنّ ما يقصده هنا ليس المدة الزمنية بالضبط، بقدر ما يريد الإحالة إلى طول المدة. ولو وضع في مكانها نقطة أو فاصلة، لفُهم أنّ هذه المدة هي المقصودة، في حين هي مجرد إحالة.

إنّه يترك المجال مفتوحًا ليضيف القارئ ما تبقّى. فقراءة جملة أو كلمة تتبعها نقطتان، إشارة إلى أن ثمة شيئًا لم يقله الكاتب، وأنه موجود هنا قريبًا فقط، وما على القارئ إلا أن يستدرج هذا المضمر. مع أنه ليس من الضروري أن يكون المضمر المُضاف نفسه عند كل القراء.

تتماشى هذه الإشارة وطبيعة الصوَر التي يوظفها نزار قباني في نثره، خاصة وأنه يعمد كثيرًا إلى التشبيه والتشخيص. ولأن الدلالة التي يريد إيصالها لقارئه هي دائمًا دلالة ثانية ينتجها سياق النص، فإنّه من الضروري ترك الجملة مفتوحة. والنقطتان المتتابعتان أكثر علامات الترقيم مناسبةً لذلك، وأي جملة أو فقرة من سيرتيه يصح فيها هذا القول:

« كثيرات من النساء ذهبن من حياتي كما أتين.. ولم
يتركن وراءهن حرفًا.. ولا فاصلة.. »[7].

أما النقاط الثلاث المتتابعة، فيجعلها عادةً في نهاية الجملة أو الفقرة، خاصة عندما يكون في حالة استشهاد. فهو يحب تأكيد ما يذهب إليه بالأمثلة الكثيرة، لتتوالى بذلك مختلف المشاهد والصور عن موضوع واحد. فيحتفظ بوضع النقطتين المتتابعتين داخل الجمل والفقرات، ويُبقي الثلاث نقاط كآخر إشارة في آخر الجملة أو الفقرة.

ويمكن ملاحظة ذلك في هذه الفقرة التي يتحدث فيها عن لغة الشعر التي يريد أن يكتب بها:

« لغة لها طعم القرفة، والياسون، والقهوة المغلية
بحبّ الهال...
لغة تدق على أبواب الجيران.. وتسهر معهم،
وتلعب الورق معهم، وتغني معهم، وترقص معهم،
وتأكل البقلاوة وحلاوة السمسم معهم...
لغة تخلع نعليها وتجلس على الأرض.. لا على
مقعد وثير من طراز لويس السادس عشر...
لغة تتكحل بها النساء.. وتتجمل بها العرائس..
ويشربها الأطفال مع الحليب قبل الذهاب إلى
المدرسة... »[8].

أو كما في قوله:

« كنت أتنفّس شعراً.. وأتكلم شعراً.. وأنام
شعراً.. وأستيقظ شعراً.. وأشرب قهوتي ممزوجة
بالشعر.. وحبّ الهال... »[9].

وكما هو الأمر أيضاً في هذه الفقرة التي تتوالى فيها هذه العلامة:

« كنت أرفض أن أكون نسخة بالكاربون لأي شاعر
آخر.. ففي العالم متنبي واحد.. و وودثورث
واحد.. وفاليري واحد.. وبابلونيرودا واحد.. وكل
نسخة أخرى تظهر في السوق لهؤلاء المبدعين.. هي
نسخة مزورة... »[10].

ومن بين علامات الترقيم التي يستعملها أيضاً من حين إلى آخر، علامتي التعجب (!) والاستفهام (؟)، خاصة وأنه يحب إثارة الأسئلة وصنع الدهشة. مع أنّ السؤال عنده لا يأتي دائماً لغرض الاستفهام، ففي أكثر الأحيان يستعمله للإحالة على التعجب والدهشة أو المفاجأة. حيث يكتفي أحياناً بوضع علامة واحدة، ويعمد إلى تكرارها مرتين أحياناً أخرى، أي على شكل (!!) أو (؟؟).

يقول في "قصتي مع الشعر":

« كيف يمكنني أن أكون موضوعيًا حين أكون أنا
الموضوع ؟ وكيف يمكن أن أحدثكم عن مساحة جرحي
حين أكون أنا الجرح؟.»[11].

اكتفى هنا بعلامة واحدة، وسنرى من خلال الأمثلة الآتية كيف يعمد إلى تكثيف الدلالة من خلال تكرار العلامة مرتين:

« كما أنني لم أسع للحصول على مقعد دائم في
مجمع اللغة العربية، لأنني أؤمن أن اللغة يصنعها
الشعراء، لا النظّامون، والنجارون، وإسكافيو
الشعر!!.. »[12].

لا شك أن تكرار العلامة أكثر لفتًا للانتباه من العلامة الواحدة، وهو بذلك يستخدمها لتساهم في تعميق الدلالة وتوسيعها. إنّها تؤثر وبشكل مباشر على حدة الإثارة المقصودة، حيث تضاعف الأثر، وتركز على حالة الدهشة أو المفاجأة أو التأثر، سلبًا وإيجابًا.

وهذا ما يمكن أن تحسّسه في قوله عن الناشرين في لبنان:

« فإنّ هؤلاء الناشرين أميون بالوراثة،
ولا يعرفون إذا كان الكتاب العربي يقرأ من اليمين..
أم يقرأ من اليسار؟؟
إنّهم مجموعة من الضباع، تأكل كل ما في طريقها
من كتب، وورق، وكرتون، ومطابع، وأدباء..
وشعراء.. وروائيين.. وحقوق تأليف!! »[13].

رغم كون علامات الترقيم هذه إشارات غير لغوية، فإنّها بشكل من الأشكال أسهمت في إنتاج الدلالة وتوجيهها على الأقل بشكل إيحائي. ويبقى الشائع في كتابات نزار قباني

خاصة في سيرتيه، أنه يوظف النقطتين المتتابعتين بشكل مُلح ومتكرر، مع استعماله من حين لآخر النقطة والفاصلة وعلامتي التعجب والاستفهام. فلا تكاد تخلو فقرة أو جملة من نصوصه، من هذا التوزيع والتنويع في علامات الترقيم، مع التركيز على علامة خاصة هي النقطتين المتتاليتين والتي تعد إشارة فتح للدلالات لا إشارة غلق. وهي علامة لم يحدد لها موضع معين داخل النص، حيث يضعها في أغلب الأحيان مكان الفاصلة أو النقطة.

إنّ النقطة علامة تحدّ وتُنهي دلالة الجملة عند الإشارة، في حين النقاط المتتالية لا تكبح جموح الدلالات التي ترد إلى ذهن القارئ. بالعكس فهما تفتحان الجملة الواحدة على فضاء من المعاني المتدفقة وغير المنتهية، وتحيلان إلى أن الدلالة الظاهرية التي تحملها الجملة ليست سوى دلالة سطحية وأولى، وعليه فإن الأهم والمقصود هو ما لم يقله النص. أي ما سيضيفه القارئ بعد استنطاقه لهذه العلامة (أي النقطتين المتتاليتين).

ما يُستنتج هنا، أن علامات الترقيم في سيرتي نزار قباني، والمتمثلة خاصة في النقاط المتتابعة، تلعب دورين بارزين في النصوص وهما:

1 – تجعل الجملة الواحدة تحمل دلالات كثيرة، حاضرة وخفية في آن واحد، مما يجعل النص منفتحًا على مختلف المعاني التي يكتشفها القارئ.

2 – تخلق إيقاعًا خاصًا وبارزًا جدًا داخل النص، مما يستوجب نمطًا خاصًا من القراءة، والتي تقترب في كثير من الأحيان من القراءة الشعرية.

ضف إلى ذلك أنّ الكاتب أراد الحفاظ على الانسياب الإيقاعي داخل النصوص، مما جعله لا يستعمل كثيرا النقطة والفاصلة، لأنهما تشترطان على البناء الصوتي "وقفة" صغيرة أو طويلة، فعوضهما في أكثر الأحيان بالنقطتين المتتاليتين لأنهما الأنسب لذلك.

الهوامش:

*- لنزار قباني خمسة عشر (15) كتابا نثريا، خاض فيها في فنون نثرية شتى هي: السيرة الذاتية، المقالة، المسرحية، الخاطرة، الرسالة، وقصيدة النثر، إضافة إلى حواراته الصحفية التي جمعها في كتب، وأيضا المقدمات النثرية التي كان يلقيها في بداية أمسياته الشعرية.

1- شربل داغر، الشعرية العربية الحديثة: تحليل نصي، دار توبقال، الدار البيضاء، ط 1، 1988، ص 24.

2- نفسه، ص 24.

3- هذه هي علامات الترقيم التي أقرّها مجمع اللغة العربية بمصر سنة 1932.

ينظر: شربل داغر، الشعرية العربية الحديثة، ص 23، 24.

4- نزار قباني، قصتي مع الشعر، منشورات نزار قباني، بيروت، ط9، 2000، ص 58.

5- نفسه، ص 59.

6- نفسه، ص 66.

7- نفسه، ص 138.

8- نزار قباني، من أوراق المجهولة...(سيرة ذاتية ثانية)، منشورات نزار قباني، بيروت، ط1، 2000، ص 35.

9- نفسه، ص 87.

10- نزار قباني، قصتي مع الشعر، ص 82.

11- نفسه، ص 25.

12- نزار قباني، من أوراقي المجهولة...، ص 40.

13- نفسه، ص 98.